

## روسيا مثلاً.. الجانب السلبي لانتهيار الإمبراطوريات العظمى



ترجمة وتحرير: نون بوست

إن الحروب عبارة عن مقصلة تاريخية. فالحروب غير المشروعة قد تكون قاتلة عندما ينتج عنها انحدار قومي عام. وهذا ينطبق بشكل خاص على الإمبراطوريات. وحتى إمبراطورية هابسبورغ التي حكمت وسط أوروبا لمئات السنين كانت لتصمد رغم عقود الانحطاط لولا هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. والأمر سيان بالنسبة للإمبراطورية العثمانية، التي كان يشار إليها منذ منتصف القرن التاسع عشر بـ "رجل أوروبا المريض". وعلى غرار إمبراطورية هابسبورغ، كانت الإمبراطورية العثمانية لتكافح لعقود حتى يعاد هيكلتها لولا أنها أيضاً كانت في الجانب الخاسر من الحرب العالمية الأولى.

مع ذلك، لا ينبغي أبداً التقليل من شأن انهيار هذه الإمبراطوريات أو الاحتفاء بها. تتشكل الإمبراطوريات من الفوضى وغالباً ما يترك انهيارها أيضاً الفوضى. وقد أثبتت الدول أحادية الإثنية التي بُعثت من رماد إمبراطورية هابسبورغ والإمبراطورية العثمانية متعددة الأعراق أنها راديكالية وغير مستقرة لأن الجماعات العرقية والطائفية ومظالمهم الخاصة، التي أُخمدت تحت المظلات الإمبراطورية المشتركة، أصبحت فجأة بمفردها وتتنافس ضد بعضها البعض.

أثرت النازية والفاشية بشكل عام على الدول والفصائل الفتاكة في منطقة البلقان في فترة ما بعد عهد هابسبورغ والعهد العثماني، وكذلك على المفكرين العرب الذين يدرسون في أوروبا الذين عادوا بهذه الأفكار إلى أوطانهم المستقلة حديثاً بعد الاستعمار، حيث ساعدوا في تشكيل الأيديولوجيا البعثية الكارثية. وقد تكهن ونستون تشرشل في نهاية الحرب العالمية الثانية بأنه لو لم تكن الأنظمة الملكية الإمبريالية في ألمانيا والنمسا وغيرها قد جلست على طاولة مفاوضات السلام في فرساي "لما ظهر هتلر".

إذا ضعفت القوى العظمى أو جميعها بشكل كبير سيزداد الارتباك والاضطراب داخل حدودها وحول العالم. ستكون الولايات المتحدة الضعيفة أو المحاصرة أقل قدرة على دعم حلفائها في أوروبا وآسيا. شهد القرن العشرين إلى حد كبير انهيار إمبراطوريات السلالات في العقود الأولى وما أعقب ذلك من الحروب والاضطرابات الجيوسياسية في العقود اللاحقة. ويستخف المفكرون بالإمبراطورية كثيرًا، لكن الانحدار الإمبراطوري يمكن أن يؤدي إلى مشاكل أكبر. فعلى سبيل المثال، لم يجد الشرق الأوسط حلاً مناسبًا لانتهيار الإمبراطورية العثمانية كما اتضح من التقلبات الدموية على امتداد المئة سنة الماضية. ينبغي أخذ كل هذا بعين الاعتبار عند النظر في ضعف الصين وروسيا والولايات المتحدة اليوم. وقد تكون هذه القوى العظمى أكثر هشاشة مما تبدو عليه. والبصيرة المطلوبة لتجنب الكوارث السياسية – أي القدرة على التفكير بشكل مأساوي من أجل تجنب المأساة – إما لم يتم تطويرها بشكل كافٍ أو لم تظهر في أي مكان في بكين وموسكو وواشنطن.

حتى الآن، شتت كل من روسيا والولايات المتحدة حروبًا ذاتية مدمرة: روسيا في أوكرانيا والولايات المتحدة في أفغانستان والعراق. أما بالنسبة للصين، فإن هوسها بغزو تايوان يمكن أن يدفعها لتدمير نفسها. وقد أظهرت القوى العظمى الثلاث في السنوات والعقود الأخيرة بوضوح مراحل من الحكم السيئ غير المألوف عندما يتعلق الأمر ببقائها على المدى الطويل.

إذا ضعفت القوى العظمى أو جميعها بشكل كبير سيزداد الارتباك والاضطراب داخل حدودها وحول العالم. ستكون الولايات المتحدة الضعيفة أو المحاصرة أقل قدرة على دعم حلفائها في أوروبا وآسيا. وفي حال تزعزع استقرار نظام الكرمليين بسبب العوامل الناجمة عن الحرب الأوكرانية، فإن روسيا التي تعتبر أضعف مؤسسيًا من الصين يمكن أن تصبح أقل قوة من يوغوسلافيا السابقة، وغير قادرة على السيطرة على أراضيها التاريخية في القوقاز وسيبيريا وشرق آسيا. ويمكن للاضطرابات الاقتصادية أو السياسية في الصين أن تطلق العنان للاضطرابات الإقليمية داخل البلاد وتشجع أيضًا الهند وكوريا الشمالية، التي تقيد بكين سياساتهما بالفعل.

أرضية هشة

إن القوى العظمى اليوم ليست إمبراطوريات، في حين أن روسيا والصين لهما تراثهما الإمبراطوري. تعتبر جذور الحرب الأوكرانية متجذرة في الدوافع التي كانت موجودة في كل من الإمبراطوريتين الروسية والسوفيتية، بينما تعكس نوايا الصين العدوانية تجاه تايوان سعي عائلة تشينغ للهيمنة في آسيا.

لم تعرّف الولايات المتحدة رسميًا أبدًا على أنها إمبراطورية، ولكن التوسع باتجاه الغرب في أمريكا الشمالية والفتوحات الإقليمية الخارجية من حين لآخر أعطها شكل الإمبراطورية في القرن التاسع عشر، وفي حقبة ما بعد الحرب تمتعت بمستوى من الهيمنة العالمية لم تكن سوى الإمبراطوريات تتمتع بها.

واليوم، تواجه هذه القوى العظمى الثلاث مستقبلًا غير مؤكد ولا يمكن استبعاد الانهيار أو درجة معينة من التفكك. وتختلف مجموعة المشاكل التي تواجه كل واحدة منها، بيد أن التحديات التي تواجه كل دولة تعتبر أساسية لوجودها. في المقابل، تواجه روسيا الخطر الأكثر إلحاحًا.

حتى لو انتصرت روسيا بطريقة ما في الحرب في أوكرانيا، فسوف يتعين عليها مواجهة الكارثة الاقتصادية المتمثلة في الانفصال عن اقتصادات الاتحاد الأوروبي ومجموعة السبع ما لم يكن هناك سلام حقيقي، وهو أمر يبدو الآن غير مرجح. وقد أصبح روسيا بالفعل رجل أوراسيا المريض، مثلما كانت الإمبراطورية العثمانية في أوروبا.

أما بالنسبة للصين، فقد تباطأ نموها الاقتصادي السنوي من رقمين إلى رقم واحد، وقد يصل قريبًا إلى

أرقام فردية منخفضة. هرب رأس المال من البلاد وباع المستثمرون الأجانب السندات والأسهم الصينية التي تقدر قيمتها بمليارات الدولارات. وفي الوقت الذي نمت فيه الاقتصاد الصيني وتقلص الاستثمار الخارجي، تهرّم سكانها وتقلصت قوتها العاملة. وكل هذا لا يبشر بالخير بالنسبة للاستقرار الداخلي في المستقبل.

أشار كيفن رود، رئيس جمعية آسيا ورئيس الوزراء الأسترالي السابق، إلى أن الرئيس الصيني شي جين بينغ من خلال سياساته الشيوعية المتشددة والصارمة "بدأ في خنق الأوزة التي تبيض ذهباً لمدة 35 سنة". ويمكن أن تهدد هذه الحقائق الاقتصادية الصارخة، من خلال تقويض مستوى معيشة المواطن الصيني العادي، السلام الاجتماعي والدعم الضمني للنظام الشيوعي. وقد تكون الأنظمة الاستبدادية فاسدة من الداخل في الوقت الذي تعكس فيه هالة من الصفاء.

تعتبر الولايات المتحدة دولة ديمقراطية لذلك تعد مشاكلها أكثر شفافية، ولكن هذا لا يجعلها بالضرورة أقل خطورة. وفي ظل ارتفاع العجز الفيدرالي إلى مستويات لا يمكن تحمّلها، أدت عملية العولمة إلى تقسيم الأمريكيين إلى نصفين متحاربين: نصف انحرف إلى قيم الحضارة العالمية الجديدة، ونصف يرفض هذه القيم من أجل قومية أكثر تقليدية ودينية.

مثل الحرب في أوكرانيا، سيكون من السهل الانخراط في صراع بحري متطور وإلكتروني، وصراع صواريخ في تايوان أو في بحر الصين الجنوبي أو بحر الصين الشرقي بدلاً من إنهائه

لقد هرب نصف سكان الولايات المتحدة من جغرافيتها القارية بينما ظل النصف الآخر مستقراً فيها. أصبحت المحيطات بشكل متزايد عاملاً أقل مساهمة في عزل الولايات المتحدة عن بقية العالم، التي ساعدت لأكثر من 200 سنة في توفير التماسك المجتمعي للبلاد. وكانت الولايات المتحدة ديمقراطية جماعية ناجحة في عصر الطباعة والآلة الكاتبة، لكنها لم تحقق نجاحاً كبيراً في العصر الرقمي، الذي غدت ابتكاراته الغضب الشعبي الذي أدى إلى صعود دونالد ترامب.

بسبب هذه التحولات، من المحتمل أن تتشكل قوة عالمية جديدة. وفي أحد السيناريوهات، تتراجع قوة روسيا بشكل حاد بسبب حربها غير المشروعة، وتجد الصين أنه من الصعب للغاية تحقيق قوة اقتصادية وتكنولوجية مستدامة في ظل ارتداد الحزب الشيوعي الصيني بشكل متزايد إلى اللينينية الأرثوذكسية، بينما تتغلب الولايات المتحدة على الاضطرابات الداخلية وتعود إلى الظهور في النهاية كقوة أحادية القطب، مثلما حدث بعد الحرب الباردة مباشرة.

يتمثل الاحتمال الآخر في نشوء عالم ثنائي القطب تحافظ فيه الصين على ديناميكيتها الاقتصادية حتى عندما تصبح أكثر استبداداً. أما الاحتمال الثالث، فيتمثل في التراجع التدريجي لجميع القوى الثلاث مما يؤدي إلى درجة أكبر من الفوضى في النظام الدولي، في ظل وجود قوى متوسطة المستوى، لا سيما في الشرق الأوسط وجنوب آسيا، حتى أقل تقييداً مما هي عليه بالفعل، وعدم قدرة الدول الأوروبية على الاتفاق في غياب قيادة أمريكية قوية حتى في الوقت الذي أصبحت فيه القارة مهددة من قبل روسيا الفوضوية ما بعد بوتين على حدودها.

سيعتمد ظهور أي سيناريو إلى حد كبير على نتيجة المنافسات العسكرية. وفي الوقت الحالي، يشهد العالم ما يمكن لحرب برية كبرى في أوروبا الشرقية أن تفعله بأفاق روسيا وسمعتها كقوة عظمى. وقد كشفت أوكرانيا الانتماء الواضح لآلة الحرب الروسية إلى العالم النامي؛ فهي معرضة لعدم الانضباط، وحالات الفرار، وتفتقر إلى وجود الخدمات اللوجستية، مع وجود فيلق ضعيف للغاية من ضباط الصف.

مثل الحرب في أوكرانيا، سيكون من السهل الانخراط في صراع بحري متطور وإلكتروني، وصراع صواريخ في تايوان أو في بحر الصين الجنوبي أو بحر الصين الشرقي بدلاً من إنهائه. فمثلاً، هل يُعتبر نهاية حكم

الحزب الشيوعي في الصين الهدف الاستراتيجي وراء بدء الولايات المتحدة لمثل هذه الأعمال العدائية العسكرية بشكل جدي؟ إذا كان الأمر كذلك، كيف سترد واشنطن على الفوضى الناتجة؟ بدأت الولايات المتحدة بالكاد التفكير في مثل هذه الأسئلة. وكما تعلمت واشنطن من أفغانستان والعراق، فإن الحرب بمثابة صندوق باندورا.

### استراتيجية الصمود

لا توجد أي قوة عظيمة تدوم إلى الأبد؛ ومع ذلك تُعد الإمبراطورية البيزنطية المثال الأكثر إثارة للإعجاب على الصمود حيث استمرت من 330 بعد الميلاد إلى حين غزو القسطنطينية خلال الحملة الصليبية الرابعة سنة 1204 وبقيت موجودة حتى النصر العثماني النهائي في سنة 1453. ويثير صمودها الإعجاب بشكل مضاعف عند النظر إلى جغرافيتها الأكثر صعوبة وأعدائها الأقوى، وهو ما يحيل إلى نقاط ضعف أكبر من روما في الغرب.

جادل المؤرخ إدوارد لوتواك بأن بيزنطة "تعتمد بدرجة أقل على القوة العسكرية وبدرجة أكثر على جميع أشكال الإقناع - لتجنيد الحلفاء وردع الأعداء وتأليب الأعداء المحتملين على بعضهم البعض". علاوة على ذلك، يلاحظ لوتواك أن البيزنطيين في المعارك "كانوا أقل ميلاً إلى تدمير الأعداء من احتوائهم، سواء كان ذلك للحفاظ على قوتهم أو لمعرفتهم أن عدو اليوم يمكن أن يكون حليف الغد".

بعبارة أخرى، لا يتعلق الأمر فقط بتجنب حرب كبرى كلما أمكن ذلك، وإنما عدم تبني أيديولوجيا صريحة حتى تكون قادرًا على اعتبار عدو اليوم صديق الغد، حتى لو كان لديه نظام سياسي مختلف عن نظامك. وهو ما لم يكن سهلاً على الولايات المتحدة التي تعتبر نفسها قوة تبشيرية ملتزمة بنشر الديمقراطية. وقد تحلى نظام البيزنطيين بمرونة غير أخلاقية، على الرغم من تدينهم المفترض - وهو نهج واقعي أصبح من الصعب تحقيقه في الولايات المتحدة نظراً إلى قوة المؤسسة الإعلامية المقدسة. وفي هذا السياق، تدعو الشخصيات المؤثرة في وسائل الإعلام الأمريكية واشنطن باستمرار إلى تعزيز الديمقراطية وحقوق الإنسان في جميع أنحاء العالم بل وفرضها في بعض الأحيان، حتى عندما يؤدي ذلك إلى الإضرار بالمصالح الجيوسياسية للولايات المتحدة.

يمكن أن تنهار الإمبراطوريات فجأة. وبمجرد حدوث ذلك، تعم الفوضى وعدم الاستقرار. ربما فات الأوان بالنسبة لروسيا لتجنب مثل هذا المصير

إلى جانب وسائل الإعلام، هناك مؤسسة السياسة الخارجية نفسها التي كما أظهر التدخل العسكري الأمريكي في ليبيا سنة 2011 بشكل واضح لم تتعلم دروساً من انهيار العراق ومن عناد أفغانستان المستمر. مع ذلك، قد يمثل رد إدارة بايدن المحسوب نسبياً في أوكرانيا - عدم إدخال قوات أمريكية وتقديم النصيحة غير الرسمي للأوكرانيين بعدم توسيع حربهم إلى الأراضي الروسية - نقطة تحول. وفي الواقع، كلما كانت الولايات المتحدة أقل تبشيراً في نهجها، زاد احتمال تجنب الحروب الكارثية. بالطبع، لا يتعين عليها أن تذهب إلى أبعد من الصين الاستبدادية، التي لا تقدم محاضرات أخلاقية للحكومات والمجتمعات الأخرى وتتعامل بكل سرور مع الأنظمة التي تختلف قيمها عن قيم بكين التي تمنح بدورها الصين ميزة اقتصادية وجيوسياسية.

قد تكون السياسة الخارجية الأمريكية الأكثر ضبطاً للنفس وصفة لاستمرارية القوة الأمريكية على المدى الطويل، حيث سيكون "التوازن الخارجي" للوهلة الأولى بمثابة استراتيجية توجيهية لواشنطن. وهو ما كتب بشأنه علماء السياسة جون ميرشايمر وستيفن والت في مجلة "فورين أفيرز" في سنة 2016، قائلين إنه "بدلاً من مراقبة العالم، ستشجع الولايات المتحدة الدول الأخرى على أخذ زمام المبادرة في التحقق من القوى الصاعدة، والتدخل فقط عند الضرورة".

ولكن تكمن مشكلة هذا النهج في أن العالم سلس ومتربط جداً، إلى حد أن ضبط النفس قد لا يكون عملياً في جزء من العالم. وقد تكون استراتيجيات التوازن الخارجي تقييدية وميكانيكية للغاية. وقد سبق أن ازدهرت السياسة الانعزالية في عصر كانت فيه السفن هي السبيل الوحيد لعبور المحيط الأطلسي، واستغرق الأمر أياماً للقيام بذلك. وفي الوقت الحاضر، قد لا تؤدي سياسة ضبط النفس المعلنة سوى إلى الضعف وعدم اليقين.

للأسف، سيكون التورط في أزمات خارجية تحتوي على عنصر عسكري مصير الولايات المتحدة، نظراً لطبيعة هذا العالم متزايد الكثافة السكانية والمتشابك والخانق. ومرة أخرى، يتمثل المفهوم الأساسي في التفكير دائماً بشكل مأساوي، أي التفكير في أسوأ السيناريوهات لكل أزمة مع عدم السماح للنفس بالتقاعس والتراخي. ومع أنه فن وحنس رائع أكثر منه علم، إلا أنها الطريقة التي ظلت بها من القوى العظمى صامدة.

يمكن أن تنهار الإمبراطوريات فجأة. وبمجرد حدوث ذلك، تعم الفوضى وعدم الاستقرار. ربما فات الأوان بالنسبة لروسيا لتجنب مثل هذا المصير. ورغم قدرة الصين على إنقاذها، إلا أن الأمر سيكون صعباً. وفي حين تُعد الولايات المتحدة الأفضل بين القوى الثلاث، إلا أنه كلما طال انتظارها لتبني تحول أكثر مأساوية وواقعية في نهجها، زادت الاحتمالات سوءاً وهو ما يجعل الاستراتيجية الكبرى للحدود أمراً بالغ الأهمية. لذلك دعونا نأمل أن تبدأ حلاً سياسة إدارة بايدن الحرب في أوكرانيا.

المصدر: فورين أفيرز